

الفصل الثامن

الحكومة والعدالة

كان المجتمع الذى ينتمى إليه المسلم بالنسبة له هو مركز العالم ومحدد بتقبل حقيقة الله ، وقبوله قانونه . وفى العالم الإسلامى كانت هناك دولة الخلافة وحاكم واحد ، هو الخليفة الرئيسى الشرعى لدار الإسلام والحاكم الاسمى للدولة الإسلامية .

لقد كان هذا المفهوم فى القرن الاول أو نحوه من التاريخ الإسلامى يطابق الواقع . لقد كون الإسلام فى الواقع مجتمعا واحداً ودولة واحدة وكان تقدمه سريعاً وبلا عوائق ، ولا بد أنه كان يبدو من الواضح ومن المؤكد بالنسبة للمعاصرين لهذا أن التقدم السريع والاكمال المميز لعميات الفتح سيجلب قبل ما مضى وقت طويل كل الجنس البشرى إلى الجانب الإسلامى .

فى خلال القرن الثامن .. كان إسلام العرب قد وصل حدوده ، وبالتدريج تقبلت فكرة أن التوسع الحتمى للدولة والعقيدة الإسلامية سوف يتوقف ، لقد أحل التخطيط للاستيلاء على القسطنطينية ولكنه استؤنف بعد عدة قرون بواسطة الاتراك العثمانيين فى موجة جديدة للفتح الإسلامى ، والتي بدورها توقفت فى منتصف أوروبا . وبالتدريج .. بدأ المسلمون يتقبلون فكرة أن الإسلام له حدود ، وأن هناك مجتمعات أخرى ودولا أخرى فيما وراءه . أما مفهوم المجتمع الإسلامى العالمى الواحد والذى يضم كل الجنس البشرى .. قد توقف وترك تحقيقه للمستقبل طبقاً للنبوءة .

فى العالم الآن ظهرت فكرة وحدة وعالمية الدولة الإسلامية ، وأحياناً كانت تظهر ممالك متصارعة داخل الإمبراطورية الإسلامية ، وفى أحسن الأحوال . كانت تعترف اعترافاً اسمياً بسلطة الخليفة ، وفى وقت ما ظهرت أكثر من خلافة ، وبعد أن دمر

المغول خلافة بغداد في ١٢٥٨ م كانت الوحدة السياسية النظرية للإسلام في نهايتها . ومع هذا . . فإن الفكرة المثالية للحكومة الإسلامية الواحدة ، كانت لاتزال تسيطر على عقول الحكام المسلمين الذين ظهروا بعد عصر الخلافة . وأحد أبرز الملامح المميزة للدول الإسلامية في العصور الوسطى حتى القرن التاسع عشر ، هو غياب الكيانات العرقية والاقليمية ، أو حتى الألقاب العرقية والاقليمية ، للحكام مثلما نجد في أوروبا ؛ حيث نجد منذ وقت مبكر ملك فرنسا وملك إنجلترا وملك الدانمرك وكثيرين آخرين .

وفي الشرق الأوسط الإسلامي . . لم يكن هناك شيء مثل هذا ، فمن ناحية هذا التنوع وعدم الاستقرار للدولة في فترة العصور الوسطى ؛ حيث كان من غير الشائع تمامًا لحاكمين متعاقبين أن يحكما نفس الاقليم بنفس الصورة ، ولكنه ظل من ملامح النظام الملكي الإسلامي الاسمي حتى في فترة ، ما بعد العصر المغولي ، عندما كانت الدولة أو الولايات بشكل عام مستقرة نبيًا .

وفي ١٥٠٠ م . . كانت هناك ثلاث دول ذات أهمية في منطقة الشرق الأوسط هي تركيا وإيران ومصر ، وبالغزو العثماني لمصر وتبعيتها لها أصبحت هناك دولتان ، ولكن الألقاب التي كانت تطلق عليهم مثل سلطان تركيا وشاه إيران وسلطان مصر ، كانت تطلق عليهم من منافعهم ، أو من الخارج ولم يكونوا هم أنفسهم يطلقون هذه الألقاب .

كانت هذه الألقاب في الاستخدام الأوروبي بحثة ، وكان الحكام يطلقون الألقاب على بعضهم البعض ؛ فقد كان هذا يعني أن اللقب الاقليمي انظر ص ٢٣٠ على أنه محلي ومحدد ، وعندما كان حكام تركيا وفارس ومصر يتكلمون عن أنفسهم . . كانوا يطلقون على أنفسهم لقب حاكم الإسلام ، أو حاكم شعب الإسلام أو أراضي الإسلام ، وليس حاكم تركيا أو فارس أو مصر .

وكان هناك لدى المسلمين مثل ما لدى الشعوب الأخرى من اتجاه لرؤية الآخرين كانعكاس لانفسهم ، وبينما كان الإسلام يؤخذ كوحدة واحدة . . كان من الطبيعي

التفكير فى دار الحرب بنفس الاصطلاحات ، التى كانت تطلق على الكفار ؛ خاصة هؤلاء الذين كانوا يعيشون فيما وراء الحدود الإسلامية .

وبينما كان المؤرخون يركزون على الاجزاء ذات الأهمية الحقيقية للتاريخ ؛ أى الشئون التى تخص مجتمع الله والحكام المعنين ، ويهملون تلك التى تخص الكفار البرابرة فيما وراء الحدود الإسلامية .. كانت هناك دول إسلامية مرغمة بصورة متزايدة على التعامل بشكل أو بآخر مع هؤلاء البرابرة ؛ ولذلك كان عليهم أن يجمعوا عنهم بعض المعلومات وإن كانت قليلة .

لقد كانت النقطة الأولى ذات الأهمية فى التعامل مع الكفار هى تحديد وتسمية الحكام المتلفين ، وقد اثار ذلك بعض المشاكل المهمة . إن التقاليد الإسلامية المبكرة التى ترجع إلى الوقت الذى كان فيه الإسلام مقصورا على شبه الجزيرة العربية ، وقد حددت أسماء ثلاثة حكام كانوا يحكمون المناطق المحيطة وهم كسرى Kisra وقيصر Qaysar والنجاشى Nagash ولا يذكر أى واحد من هؤلاء فى القرآن بالاسم ، ولكن الاشارات القرآنية العرضية إلى الدولة المحيطة قد شرحت فى التعليقات والاحاديث المنقولة ، وأدخلت الكلمات الثلاثة إلى العربية ربما عن طريق الآرامية . فكلمة كسرى Kisra من Chorsse khusraw واحمد من أعظم حكام إيران المتأخرين من الأسرة الساسانية ، وقيصر Qaysar اشتقت من Coesar ، والنجاشى Nagash من Nagu ، ويبدو أن الالقاب الثلاثة قد استعملها المسلمون الأوائل على أنها أسماء شخصية ، لا على القاب للدلالة على الحكام ، الذين كانوا يحكمون فى ذلك الوقت فى الاقطار الثلاثة المهمة المعروفة لهم ، وطبقا للقول المنسوب إلى محمد إذا فنى كسرى .. فلن يكون هناك كسرى بعده ، وإذا فنى قيصر .. فلن يكون هناك قيصر .. بعده ، وستنق خزائنهم فى سبيل الله ^(١) .

لقد فنى كسرى ولم يكن هناك كسرى بعده ، فلقد انتهت الدولة الساسانية وألحقت بيت الإسلام House of Islam كما انتهى عصر الإباطرة Zoroas-trians أما المملكة المسيحية الاثيوبية قد بقيت ، ولكنها احيطت من كل جانب ، وأصبحت إلى حد ما غير

ذات أهمية ، وظلت الإمبراطورية الرومانية الشرقية فقط كجدار ومنافس للإسلام ، ولم يستخدم لقب قيصر إلا نادراً للإشارة إلى الإباطرة البيزنطيين . وكان هؤلاء الإباطرة يتنادون أحيانا بألقاب مهنية . وهناك لقب شائع هو طاغية Toghiya أى Tyrant ، وقد استخدم فى ما بعد أيضاً للإشارة إلى الحكام الأوروبيين . وذلك بواسطة كتاب شمال أفريقيا ، وهناك أيضاً صيغة للخطاب استخدمت فى خطاب أرسل بواسطة الخليفة هارون الرشيد إلى الامبراطور البيزنطى نيكيفوراس Nikephoras والذى يبدأ بـ « من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نيكيفوراس كلب الروم ، تحية »^(٢٧) .

أما أكثر الاصطلاحات استخداما فى الإشارة إلى الإباطرة البيزنطية وكذلك إلى حكام المسيحية فهو ملك Malik أى King والكلمة العربية ملك فى القرآن والاحاديث والسنة مثل نظيرتها فى العبرية ملخ Melekh فى الأسفار المبكرة للعهد القديم ، تحمل إشارة ضمنية سلبية عندما يطلق على الحكام الأدميين على أنها سلطة دنيوية لادينية . فى القرون الإسلامية المبكرة وفى نطاق الأراضى الإسلامية . . استخدمت كاصطلاح للتمييز بين الحكم الكافر والتعسفى للحكام الدنيويين وبين الحكم المشرع سماويا للخليفة إن تصور فكرة أو اصطلاح الدولة لم يأخذ حقه من الاعتبار بين المسلمين ، إلا بعد ظهور النظام السياسى الفارسى مرة ثانية فى بلاد الإسلام . حتى فى ذلك الحين . . بقى هذا التصور ضمنيا سلبيا ، واضحا فى الاصطلاحات المهنية التى كانت تطلق على حكام المسيحية مثل ملوك الكفر وملوك الكفار .

وكان لقب ملك يطلق كثيرا على طبقة واحدة من الحكام ؛ فالإمارات المسيحية التى أسسها الصليبيون فى الأراضى المأخوذة من المسلمين ، تبدو وكأنها تفصها ولو الشرعية الضئيلة للحكام الأوروبيين فى نماذج الاستخدام المكتوبة ، فى مجالس العدلية المصرية لمخاطبة ملوك قبرص وأرمينيا الصغرى واستبدلت كلمة ملك باللفظ متملك ؛ أى متصنع الملك وهو غير ذلك فى الواقع ، واستخدمت نفس كلمة ملك بلا تمييز للإشارة إلى الامراء الفرنجة ورمعاء القبائل الأفريقية والإباطرة البيزنطيين والهنود الصينيين وكذلك حكام أوروبا .

ومن أجل مراسلة الحكام . . لا بد أن يكون هناك تحديد أكبر ، إن الأمثلة الإسلامية المبكرة لمثل هذه المراسلة هي خطابات تدعى Alleged أنها تبودلت بين النبي محمد ﷺ وحكام الأقطار الثلاثة المحيطة بالجزيرة العربية ، ، إن صحة هذه الحقائق وقد وضعت محل خلاف فهي بكل تأكيد من وقت مبكر جداً ، وتنفع كدليل على المعاملات مع الحكام غير المسلمين . إن الحكام الثلاثة قد خوطبوا بأسمائهم متبوعة بالألقاب ، التي غالباً ما تكون ملكاً وأحياناً في نصوص مطابقة لهذه كانت كلمة سيد Lord (صاحب) . Sahib ، أو القوي azim (عظيم) ومباين المقاطعة أو الشعب المحكوم . وهكذا . . كان الامبراطور البيزنطي يخاطب بلقب ملك أو صاحب أو عظيم الروم ، النيجوس Negus يخاطب بأنه نجاشي أو ملك اثيوبيا وهكذا . أما صيغة التحية فهي مختلفة عن تلك المستخدمة مع الحكام المسلمين . فعندما يكتب حاكم مسلماً حاكماً أو آخر فإنه يستخدم التحية الإسلامية الكلاسيكية ، السلام عليك Peace be with you . وعندما يخاطب حاكماً غير مسلم . . فإن التحية تكون السلام على من اتبع الهدى Peace be with those who follow the right path ، وهذه إلى حد ما تحية غامضة أصبحت مقياساً في مخاطبات الحكام غير المسلمين . وكان السفير المراكشي غسانى يصر على تحية ملك أسبانيا بهذه الكلمات عندما يستقبله على الملأ . فقد لاحظ أن الطاغية الاسبانية قد دهش لما سمع هذه الصيغة التي ليس لها مثل من قبل في المخاطبة ، لكنه تقبلها مرغماً نظراً لأنه يعلم أن السفير مصر على ألا يستعمل صيغة غيرها⁽³⁾ .

تنقصنا المعلومات من المراسلات الدبلوماسية مع القوى غير الإسلامية في القرون المبكرة ، مع أنه يبدو من المحتمل أن العبارة البعيدة عن الذوق « كلب الرومان » المكتوبة في عشية اندلاع الحرب هي استثناء أكثر منها قاعدة . تأتي أفضل المعلومات التي لدينا في مثل هذه الأمور في فترة العصور الوسطى الإسلامية من مصر ، ولدينا خبر مبكر جداً عن تبادل الخطابات غير المسلمين ، منهم الامبراطور البيزنطي المشارك Byzantine Coemperor وهذا الخبر يؤرخ من القرن العاشر⁽⁴⁾ .

من هذا أخبار تعد جيدة إلى حد ما فى الأدب المصرى البيروقراطى ، وكذلك عدم من الوثائق المحفوظة فى الأرشيفات الأوروبية .

وحقيقة .. فإن المعلومات الكاملة ليست متاحة حتى عصر العثمانيين الذى حصلنا عنه ، ولأول مرة ، لا على تواريخ وأخبار فقط ، بل على وثائق عديدة أيضاً . من تلك التواريخ ، أو الأخبار .. يستطيع المرء أن يدرك أن العثمانيين لم يهتموا اهتماماً كبيراً بالألقاب الأوروبية الصحيحة . وحتى كمال باشا زاده Kamalpasazade مؤرخ سليمان العظيم ، يشير إلى الحكام الأوروبيين الرئيسيين كبك فرنسا bey of France و بك إسبانيا و بك ألمانيا . وهو لقب أعطي فى الامبراطورية العثمانية لمجرد حاكم إقليمى . وبنفس الروح والأسلوب عندما يشار إلى الشعوب والأقطار التى يحكمها هؤلاء الحكام الأوروبيون ، حتى فى الخطابات الملكية الموجهة على أنها ولايات ، وهو الاسم المطبق على تقسيمات وولايات الدولة العثمانية .

وتستخدم النصوص العثمانية بشكل أكثر شيوعاً مصطلح كيرال Kiral للحكام الأوروبيين بألقابهم الصحيحة ، كما حددها بأنفسهم ، ولكن دون مشابهتهم للمناصب الإسلامية الرئيسية . وهناك خطابات إلى الملكة اليزابيث الأولى ملكة إنجلترا تبدأ بـ « فخر أتباع عيسى الأفضل ، أكثر السيدات تبجيلاً فى المجتمع المسيحى ، مديرة شئون العقيدة النصرانية Nazarene التى تستحق أعظم آيات الاحترام والتبجيل ، ملكة أراضى إنجلترا ، فلتكن نهايتها سعيدة مباركة Blissful »^(٥) ، هذا اللقب الشائع فى كل الخطابات الموجهة إلى الحكام المسيحيين الأوروبيين يشير إلى التصنيف الدينى الرئيسى المأخوذ لدى العثمانيين أن شخصية الملكة اليزابيث المسيحية ، قد أكدت فيما لا يقل عن ثلاثة مرات ، قبل أن يبدأ كاتب الوثيقة الكلام عن إنجلترا . لقد كانت الملكة واحدة من حكام المسيحية . وفى نطاق هذا الكيان الأكبر .. فإنها تحكم أرض (ولاية) إنجلترا . والغير من مثل صيغة الدعاء النبوى المذكور أعلاه ، تعبر عن الأمل فى أن تصبح مسلمة (أى الملكة) قبل موتها وهكذا تكسب الرحمة الأبدية .

فى عصر اليزابيث كانت المعلومات عن أرض إنجلترا قليلة ومهام حاكمها فى تركيا .

وقد كانوا يعرفون أكثر - وهذا شيء طبيعي - عن دول وسط أوروبا ؛ حيث خوطب
الامبراطور في بروسيا بنفس الصيغة ، ولكن تتبع بصيغة قريبة من ألقابهم الصحيحة .
وظل المجلس العثماني لوقت طويل يرفض إضفاء أى لقب أكبر من ملك للحكام
المسيحيين ، بينما كان سلاطين مراكش يستخدمون اصطلاح سلطان بحرية أكثر نجاة
الحكام المسلمين الآخرين ، وكذلك الحكام الأوروبيين المسيحيين ، أما العثمانيون . .
فقد قصروا هذا اللقب على أنفسهم حقداً وغيره منهم ، بل إنهم نادوا الحكام المسلمين
الآخرين بألقاب أقل من تلك التى ينادى بها الحكام الأوروبيون ، حتى الامبراطور
الرومانى المقدس كان عادة يخاطب بأنه ملك فيينا ، وهذا الاصطلاح فى البروتوكول
تعبير للتقليل والتصغير ، وأول حاكم أوروبى يعطى له لقب أعظم إلى حد ما من
الألقاب السابقة ، هو فرنسيس الأول حاكم فرنسا الذى أشير إليه فى المعاهدة الفرنسية
العثمانية ، بأنه باديشاه ، وهو لقب من أصل فارسى ، يشير إلى حكم سامى ، وأحيانا
كان يطلق على السلاطين العثمانيين أنفسهم . ويعتبر إطلاقه على ملك فرنسا تنازلاً
عظيماً . وحتى القرن الثانى . . لم تكن ألقاب التعظيم والتمجيد مسموحة للحكام
النمساويين والروس ، والأوروبيين الآخرين . وكان التقليد هو إضفاء ألقابهم الخاصة
بهم عليهم ، وكان الامبراطور النمساوى يخاطب بكاسار Casar من قيصر Kaiser ،
والروس Czar .

ولقد اعتقد الروس أن دخولهم عام ١٧٧٤ م فى معاهدة Kucuk Kaynarja أمر
عظيم الأهمية ، هذه المعاهدة التى يفرضون فيها إرادتهم على الامبراطورية العثمانية
المهزومة .

وتؤكد المادة ١٣ فى المعاهدة هذا « لقد تعهد الباب العالى باستخدام اللقب المقدس
لإمبراطور روسيا فى كل الأعمال العامة والخطابات ، وكل الحالات الأخرى باللغة
التركية بمعنى تمامين روسيليرين بادياج Temamen Roussielerin Padischag أن
تضمن المادة اللغة التركية فى النص ، لهو أمر جدير بالملاحظة » .

وهناك مذكرة روسية معاصرة عن المعاهدة لاحظت هذه النقطة مع ملاحظة

المكاسب الاقتصادية والاستراتيجية والسياسية ، كواحدة من إنجازات المعاهدة . إن النفور العثماني من اضمفاء هذا اللقب على الحكام الأجانب ، كان أكثر من مجرد أمر من أمور البروتوكول . لقد كان له جذور في المفهوم الإسلامي العثماني للديانة والذوق ، ويمكننا أن نرى هذا في تقرير كتبه ضابط تركي ، كان مرافقا للسفير التركي إبراهيم باشا إلى فيينا في ١٧١٩ . ويشير الكاتب - الذي لم يكن دبلوماسيا أو بيروقراطيا (أى موظفا) - بل كان جنديا يكتب بأسلوب تركي بسيط ومباشر إلى الامبراطور النمساوي بكلمة Kaiser مكتوبة بالخط التركي . ويشرح هذه الكلمة غير المعتادة لقراءتها ؛ فهو يلاحظ أن هذه الكلمة تعني في اللغة الألمانية باديشاه Padisah ولكي يتجنب المشابهة غير اللائقة أو المقارنة غير اللائقة نجده يضيف كلمة التشبيه La-tesbih والتي تعني شيئا مشابها للتعبير الإنجليزي God save the mark لا قدر الله ^(١) .

لقد اهتم العثمانيون بالتمييز بين سلطتهم الإسلامية ، وبين تلك التي تخص حكام أوروبا الأقل منهم ، وهذا يبدو واضحا في أسلوب ، بل وفي عناوين الكتابة في الخطابات ، لقد كتب السلطان مراد الثالث للملكة انجلترا اليزابيث في ١٥٨٣ « إن بابنا العالي مفتوح في صفح وإحسان لهؤلاء الذين يعرضون ولاءهم ، إن قلوبنا المملوءة بالسعادة والخير مفتوحة (مستعدة أو جاهز لـ . . .) لهؤلاء الذين يظهرون إخلاصهم . أن مبعوثه يتلقى تحية .. مثل تحية المبعوثين من قبل الملوك الآخرين ، الذين يعرضون الثقة والولاء لبابنا السامي ، و تمنينا العظيم سيعنى بهم ، ويحمون لذلك . أنت من جانبك دائما باقين على صداقتك وولائك لبلاطنا ، ثابتة القدم على طريق الثقة والولاء مستمرة وثابتة على طريق الصداقة والولاء » ^(٢) ، وأن هذه الصيغة الأخرى الأقوى منها الشائعة في المراسلات مع الحكام الأوروبيين ، إنما تعكس توقعا سابقا للاذعان الأوروبي في مثل هذه العلاقة .

لقد كان السفراء المسلمون وهذا لا يدهشنا - يعطون كل انتباههم أو اهتمامهم للحكام المعتمدين لديهم . أما الشخصيات الأقل تكافؤا لا يعطونهم إلا اهتماما ضئيلا .

وذلك يذكر عادة بشكل رئيسى فى سياق اجتماعاتهم ومراسلاتهم أو تبادلهم معهم . إن غسانى يناقش الظاهرة المميزة الخاصة بميراث الألقاب - حتى بالنسبة للإناث - وشغف الإنسان بالحصول على الألقاب سواء عن طريق الاستحقاق والحرارة أو الاقتران والزواج . ويعرض محمد سيد أفندى للقراء شرحاً مختصراً لنظام الحكومة الفرنسية .

لديهم العديد من الوزراء Viziers يطلقون عليهم ministres ومن هم برتبة أقل مارشال ودوق . وكل واحد منهم يختص بأمر معين ؛ ولايتدخل واحد منهم فى عمل الآخر ، وكل منهم مستقل فى العمل المكلف به . والمذكور أعلاه (رئيس اساقفة archbishop of Cambrai) كان مسئولاً عن الشؤون الخارجية ، ولديه السلطة للتعامل مع مثل هذه الأمور ، مثل : القيام بالحرب أو توقيع سلام ، ويعتنى بالشئون الاقتصادية ، ويتعامل مع السفراء القادمين من المناطق الأخرى ، ويعين ويفصل السفراء الفرنسيين لدى صاحب السعادة باسطنبول^(٩) .

وحتى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر . . لم يبدأ المعوقون المسلمون ، والزوار الآخرون إلى أوروبا فى إعطاء أى اجتماع للجهاز الفعلى للحكومة ، والموظفين الأقل فى المرتبة من الموظفين الرئيسيين . وبالتأكيد أكثرهم أهمية عزمى أفندى ، السفير العثمانى لبرلين من ١٧٩٠ - ١٧٩٢ ، وهو مثل الزوار والكتاب والعثمانيين ، الآخرين يعكس تغيراً ملموساً فى الرأى نحو الأوروبيين ، الذين لم يصبحوا الآن كفاراً جهلاء فقط يستحقون الذكر بسبب عرابتهم المسلمية ، وعلى العكس . . أصبحوا الآن أقوياء وأفراداً متطورين ، حيث يجد أن تدرس أساليبهم لاستخدامها ضدهم وربما لهذا الغرض لتقليدهم . ان تقرير عزمى يبدأ بصيغة وصفية معتادة لرحلاته ونشاطاته والجزء التالى من تقريره ذو أهمية أعظم ، والذي يعرض فيه وصفاً لمملكة بروسيا تحت عناوين مختلفة : إدارة الدولة للسكان ، الوظائف الحكومية العليا ، الحالة المالية ، مستودعات الطعام الحكومية ، ترسانة الأسلحة والذخيرة ومستودعات المدفعية ، ويبدو أن عزمى أفندى تأثر بدرجة كبيرة بتنظيم الحكومة البروسية ؛ وخاصة كفاءة جهاز الدولة وكفاءة موظفيه ، وغياب الموظفين غير المؤهلين الذين لاضرورة لهم ، ونظام المرتبات

والترقيات ، ويتكلم عن الجهد الروسى لتوطيد الصناعات ، وأسهب فى الكلام عن الهدوء الداخلى وأمن المملكة البروسية ، وهو يضىف مدحا خاصا على النظام الحالى والخزانة . وللعجيش الروسى ونظم تدريبه ، التى أصبحت مصدراً مهما للمسئولين العثمانيين ، الذين يسعون لتنظيم عسكري أفضل ، ولم يقنع عزمى أفندى باقتراحاته المتظمه فى كلامه ، بل أنهى تقريره بسلسلة من التوصيات لتحسين حالة الدولة العثمانية والمملاة عليه بخبرته ، التى اكتسبها هناك وهذه التوصيات هى :

- ١ - محر الفساد الذى هو سبب الطغيان والخراب فى الدولة العثمانية .
- ٢ - تطهير جهاز الدولة وذلك لتوظيف الاكفاء فقط فيه .
- ٣ - كل موظف يتقاضى راتبه طبقا لطبيعة العمل المكلف به .
- ٤ - طالما أن الموظفين لا يرتكبون ما يضر النظام ومبادئ الدولة ، فلا يجب أن يفصلوا من وظائفهم .
- ٥ - لا يجب أن يعين أفراد غير مؤهلين فى وظائف لاتناسبهم .
- ٦ - يجب أن تتعلم الطبقات السفلى التى تجاهد عبثا لتقليد الطبقات العليا .
- ٧ - يجب على القوات المسلحة خاصة المدفعية والبحرية (أن تتدرب جيداً وتكون مستعدة لمواجهة أى طوارئ فى الصيف والشتاء على السواء . وإذا حدث هذا . . فإن حلفاء الدولة العثمانية سيزيدون قوة وحماسة ، وسينهزم أعداؤها بهذا الأسلوب^(١٠) .

ومن وقت لآخر . . كان الكتاب المسلمون الذين يكتبون عن أوروبا الغربية يلاحظون خروجاً عن النماذج المعتادة للملكية ، منها مثلاً حكم المرأة فمعنى مجتمع يعترف بتعدد الزوجات ونظام الخليلات كنظام معتاد وخاصة بواسطة الحكام . فإن ظهور امرأة كحاكمة غير محتمل . وحقيقة كان هناك قليل من النساء المشاهير الذين استطاعوا تحقيق قوة عظيمة وحتى فى سياق هذا الكلام كانت فترة حكمهم قصيرة ، ومع هذا لم تكن الملكات غير معروفات بالنسبة للعالم الإسلامى ؛ فلقد رأوا ملكات فى بيزنطة

المجاورة ، وفهموا مبدأ الخلافة على العرش . وهناك مؤرخ مسلم معاصر ، فى وقت قريب من المعاصرة يتكلم عن الامبراطورة ايرين Irene التى حكمت من ٧٩٧ - ٨٢٢ ، وقد لاحظ : « لقد حكمت امرأة الروم لأنه فى ذلك الوقت كانت الوحيدة الباقية من البيت الملكى »^(١١) لقد سجل مؤرخ مسلم وصول سفيرة من حاكم لومبارو فى إيطاليا المسماة بيرثا Bertha فى ٩٠٦ (اسم الحاكمة بيدثانيت لوثر) ، ولكن لم يعرض شيئا عنها أو عن بلدها . إن القلقشندى يضمن فيما أورده بعد عن « حاكمة نابولى » مايلى معتمدا على مخطوط مبكر عن عصره ، أن اسمها جوانا ، وأنه قد تم إرسال خطاب لها فى حوالى نهاية ٧٧٣ (١٣٧١) - بالالقب التالية « إلى المعظمة الممجدة المكرمة ، الميجلة ، العظيمة الملكة المجيدة ، الحجة فى دينها ، فقط فى مملكتها ، عظيمة الدين النصرانى من دعامة المجتمع المسيحى ، حامية حدود اصدقاءها من الملوك والسلاطين » .

وقد لاحظ القلقشندى أنه « إذا كان سيخلفها فى مملكتها رجل فله أن يخاطب بنفس الالقب فى صيغة المذكر ، أو بالقب أعلى نظراً لقوامة الرجل على المرأة »^(١٢) .

لقد كان العثمانيون على معرفة جيدة بالملكات الأوروبيات الحاكمات من اليزايث ملكة إنجلترا إلى ماريا تريزا ملكة النمسا ، ومن الغريب أنه فى الوقت الذى يعلق فيه الزوار المسلمون بشكل دائم وبنفور على المناصب العليا المتاحة للنساء فى المجتمع المسيحى فإنهم يظهرن الاهتمام بالحاكمات النساء .

لقد ناقش عديد من الكتاب المسلمين السلطة الدنيوية للبابا ، وحاول واحد منهم ، وهو المؤرخ الفارسى رشيد الذين فى كتابه عن تاريخ العالم المكتوب فى الأعوام الأولى للقرن الرابع عشر تحديد العلاقات بين البابا والامبراطور وملوك المسيحية الآخرين .

« إن نظام حكام الفرنجة Franks هو كالتالى : الأول فى الخط هو Pap والذى يعنى أبو الآباء وهم يعتبرونه خليفة المسيح ، يأتى بعده الامبراطور (Chasar) الذى ينادى فى لغة الفرنجة بـ Amperur وتعنى سلطان السلاطين ، يأتى بعده Reda Frans وتعنى ملك الملوك . ويحتفظ الامبراطور بحكمه منذ أن يصبح امبراطورا حتى وفاته .

وهم يختارونه (انظر ص ٢٤٤) . أما Reda Frans فيحكم بالميراث عن أبيه ، وفى الوقت الحالى . . يتمتع بنفوذ قوى واحترام عظيم . ويوجد تحت امرته ١٢ حاكما ، ولكل واحد من هؤلاء الحكام يخضع ثلاثة ملوك ، وأخيراً يأتي Re التى تعنى ملكا أو سيدا .

إن رتبة البابا عالية وعظيمة جدا ، وهم عندما يريدون تعيين امبراطور جديد . فإن سبعة من عظمائهم الذين يكون عملهم الاجتماع والاستشارة : ثلاثة منهم برتبة ماركييز وثلاثة أمراء وحاكم واحد ، وهم يستعرضون كل رجالات فرنسا ، ويختارون عشرة رجال من بينهم ، ثم بعد تدقيق واختبار دقيق يختارون واحدا من العشرة ، مشهودا له بالكفاءة وذا سلطة وعفاف ، كما أنه مميز بعقيدته وورعه وكرامته ونبله وكمال خلقه وثباته ، ثم يضعون تاجا من الفضة على رأسه فى ألمانيا ، التى يظنها الفرنجة ٣/١ العالم .

من هناك يذهبون إلى لومبارديا ويضعون على رأسه تاجا من الحديد ، ثم يذهبون إلى روما مدينة البابا الذى يقف على قدمه ويضع على رأس المتوج تاجا من الذهب ، ثم يلقي المتوج نفسه تحت اقدام البابا ويمسك رداءة . فيضع البابا قدمه على رأسه ورقبته ويخطو فوقه ، ثم يركب حصانه . عندئذ يعطى لقب إمبراطور ويصبح حكام الفرنجة خاضعين له ، ويمتد نفوذه على كل الأراضى والبحار التى تقع تحت سيطرة الفرنجة « (١٣) .

أن معلومات رشيد الدين Rashid al-Din جيدة ، ويبدو بوضوح أنها جاءت من مصدر بابوى ، وهو يتبعها بسرد لتاريخ البابوات حتى عصره .

لقد كان هناك نوع آخر من الحكم أغرب من حكم النساء والكهنة ، قابله المسلمون فى أوروبا ويشيرون إليه أحيانا فى بعض كتبهم . أن تصور الجمهورية لم يكن بأى حال مألوفاً لمسلمى العصور الوسطى لقد ظهر فى بعض الكتابات العربية مناقشات ومجالات للكتابات السياسية الاغريقية ، حيث ترجم الاصطلاح الاغريقي Politeia

(فى اللاتينية res publica) أى (دولة أو جمهورية أو حكومة حرة) إلى الاصطلاح العربى مدينة madina .

إن التصنيف الذى أسماه أفلاطون السياسة الديمقراطية ، يظهر فى النصوص العربية الكلاسيكية باسم مدينة جامعية madina jamaiyya ، حتى فى المجتمع الإسلامى نفسه ؛ طبقا للقوانين المصاغة بواسطة الفقهاء السنين . . كانت الخلافة لاتورث وتتم بالانتخاب ، كما أنها خاضعة للقانون وليست فوقه .

ومع هذا . فإنه بعد الأربعين سنة الأولى وبعد أربعة خلفاء . . كان الحكم فى الإسلام مثلما هو موجود فى أى مكان فى العالم فردى monarchical . كما أن الكتابات والمفاهيم الخاصة بالجمهورية التى ترجمت إلى العربية من الكتابات الفلسفية الاغريقية لم يكن لها أى تأثير خارج دائرة ضيقة من الكتاب وقراءة الفلسفة والافتقار إلى هذا التأثير يبدو واضحا من حقيقة أنه ، عندما كانت حاجة للاصطلاحات للإشارة إلى الصيغ الجمهورية أو الأشكال الجمهورية للحكومة فى أوروبا فى مرحلة لاحقة . . فإنها كانت توضع دون معرفة ، أو إشارة إلى الكتابات أو الادب الفلسفى .

إن الشكل الجمهورى للحكومة يعرض بوضوح بعض مشاكل الشمول . وهناك قصة مبكرة جاءت فى تقرير عادى للعمري Umarī من حوالى ١٣٤٠ ، حيث :

« أن البنادقة لم يكن لديهم ملك ، ولكن شكل أو أسلوب حكمهم جماعى ، وهذا يعنى أنهم يتفقون بالإجماع على رجل يعينونه ليحكمهم . ان البنادقة باسم Banadiqa ، ورمزهم شكل إنسانى ذو وجه يعتقدون أنه للقديس مارك أحد الحوارين ، ويأتى الرجل الذى يختارونه ليحكمهم من إحدى العائلات المميزة منهم » .
بعد ملاحظة أن :

لديهم نفس نظام الحكومة ويعطينا العمري معلومات أكثر تفصيلا إلى حد ما عن حبشوا البلد الاصلى لمبلغه أو مميزة الكافر المرتد عن الدين . « إن نظام حكومة الشعب فى جنوة عامة Communa منهم لم يكن لديهم أبداً ملك ، ولن يكون حكمهم فى

الوقت الحاضر ينقسم بين عائلتين إحداهما هي بيت دوريا التي جاء منها بالبان . وأما الأخرى فهي عائلة سينيولا Spinola ، ويقول بالبان أيضاً إنه بعد هاتين العائلتين فى جنوا .. هناك عائلات جرمالدى ، ومالونو ، ودى مارى ، وسان توتورى ، وفيشى ، وأعضاء تلك العائلات مستشارون للحكام^(١٤) .

يعطى القلقشندى متبعاً الثقيف إرشاداته للمراسلة مع جمهوريتين إيطاليتين ، هما جنوا ، وفينسيا (البندقية) وهو يقول عن جنوا :

« صيغة مخاطبة حكام جنوا : هم مجموعة من الناس من مناصب مختلفة أى منهم ، Podesta والكابتن والشيوخ . وطبقاً للثقيف .. تكتب خطابات على الكوارتو ، ويتبعون الأسلوب التالى :

« هذه المراسلة تخاطب أصحاب السعادة الممجدين المحترمين المكرمين الموقوررين بودستا ، وكابتن وفلان وللشيوخ العظماء ، والمكرمين مديرى قضاء مجلس كوميون جنو الممجدين فى المجتمع المسيحى ، عظماء الدين النصرانى أصدقاء الملوك والسلاطين فليسلمهم الله القوى العزيز اتباع طريق الحق ؛ لتكليل جنودهم بالنجاح ويقودهم بالنجاح ويقودهم إلى رأى السليم » .

ويضيف الثقيف :

فى بداية عام ٧٦٧ (١٣٦٥ - ١٣٦٦) أبطلوا ، وأصبحت المخاطبة والمراسلة للزوج الذى حل محلهم ، وقد لاحظ القلقشندى فى فيينا :

صيغة مخاطبة حاكم فيينا : الصيغة المعمولة بها اقتبست عندما أرسلت إجابة أو رد له فى عام ٧٦٧ ، وكان اسمه فى هذا الوقت ماركوكورنارد : لقد تلقينا خطاب صاحب السعادة الرويج العظيم ، الموقر المحترم الشجاع المجد العظيم ماركوكورنارد ، فخر المجتمع المسيحى ، بهاء عقيدة الصليب دوج فيينا ودالماشيا . سند دين أبناء العمودية صديق الملوك والسلاطين .

وبعد إيراد الكثير من الأمثلة .. يضيف القلقشندى بتعليقه الخاص : « من كل

هذا تبين أن الدوج تختلف عن الملك . فى المثالين الأول والثانى . . كانت صيغة المخاطبة هى نفسها إلى حد كبير ، ولكن فى المثال الثالث كانت أقل من الاثنتين الأولى والثانية .

إذا كان الدوج هو الملك حقاً . . إذن فإن الاختلاف فى صيغة المخاطب يرجع إلى بعض الظروف ، أو إلى بعض الاختلاف فى الفرض الخاص بالكاتب ، أو نقص المعلومات لديه فيما يخص رتبة المخاطب ، مثلما يحدث بسبب ضغط العمل فى أى عصر كما هو واضح^(١) .

إلى الشرق يظهر أن رشيد الدين قد سمع عن جمهوريات إيطاليا ؛ فهو يقول : « فى هذه المدن ليس هناك ملك بالوراثة . إن أكابر وعلية الناس ينصبون رجلاً ورعاً ذات حياة مستقيمة ويجعلونه بالاجماع حاكماً لمدة عام ، وفى نهاية العام يصبح صائح من عانى ظلماً فى هذا العام فليتقدم بشكواه ، « كل هؤلاء الذين قد عانوا ظلماً يقدمون أنفسهم ثم يسامحونه . ثم يختارون رجلاً آخر ، ويجعلونه حاكماً . . فيما وراء هذا القطر (حول جنوا) هناك قطر آخر يسمى بولونيا ، وعاصمته مدينة عظيمة وفيما وراءها على ساحل البحر مدينة تسمى (البندقية) (ذكرتها بفينيسيا) ، وقد بنوا مبانيهم كلها وهى ترتفع عن البحر . حاكمهم لديه ٣٠٠ سفينة ، وهناك أيضاً لا يوجد حاكم بالقوة أو باللين ، إن تجار المدينة ينصبون بالاجماع (أو الموافقة) رجلاً تقياً صالحاً ، ويجعلونه حاكمهم ، وعندما يموت يختارون غيره ، وينصبونه حاكماً لهم^(٢) .

فى زمن العثمانيين . . كانت المؤسسات الجمهورية مألوفة ومفهومة بشكل أحسن . لقد حافظت الامبراطورية العثمانية على علاقتها مع جمهوريات راجوسا على الساحل الداعشى وفينيسيا ، وجنوا والدول الايطالية الأخرى ، وكذلك مع الولايات المتحدة ، للأراضى المختلفة المنخفضة (هولندا) . ومع هذا . . كانت صيغة المخاطبة لاتزال شخصية ، لقد كان رئيس جمهورية راجوسا الذى استعمل لقب (أى قبش) قد حوطف فى الوثائق العثمانية بالكلمة وبحار راجوسا . ويشبه ذلك فى الخطابات إلى فينيسيا أو مناقشة أمور البندقية ، ويتحدث الكتاب العثمانيون عادة عن الدوج أو

السيوريا أكثر منها عن الجمهورية لقد كان كاتب جلبي - الذي كتب في ١٦٥٥ - قادراً على التمييز بين جمهورية فينسيا الاوليماريكية وجمهوريات الأراضي المختلفة ، وكرومويل في إنجلترا الديمقراطية ، وأيضاً إعطاء بيان مختصر للإجراءات الانتخابية .

فى مسائل تنظيم الحكومة . . يقول إن دول أوروبا مقسمة إلى ثلاث مدارس أو (مذاهب) ، كل مذهب أسسه واحد من الحكماء ذوى المكانة العالية ، أما مدرسة أفلاطون فتسمى () وأرسطو () و (ديموقريطس) أما الموناركي . . فتعنى أن كل الناس تطيع حاكماً واحداً حكيماً وعادلاً وقد اتبعت هذه الطريقة بواسطة معظم حكام أوروبا . أما فى () يكون الحكم فى يد مجموعة من الناس البارزين الذين يكونون مستقلين فى معظم الأمور ، ولكن يختارون واحداً منهم ليرأسهم . وقد نظمت دولة فينسيا على هذا الأساس . أما () فيكون الحكم فى أيدي الرعايا الذين يكونون بهذا قادرين على حماية أنفسهم من الطغيان . وتختار كل قرية واحداً أو اثنين من حكامها المشهود لهم بالكفاءة ، وترسلهم إلى الحكومة حيث يكونون مجلساً ، ويختارون قائداً من بين أنفسهم وهذه الطريقة يتبعها الانجليز والهولنديين .

إن جلبي يعطينا وصفاً مختصراً للمجالس المختلفة (ديوان) فى فينسيا ، بل وحتى إجراءات التصويت . كل عضو مجلس يكون فى يده كرتان () مثل زرات واحدة بيضاء والاخرى سوداء ويطلق عليها () بعد المناقشة فى الديوان يعبر الجالسون فيه عن رغباتهم بإسقاط هذه الكرات السوداء أو البيضاء .

وهناك كاتب من بداية القرن ١٨ كتب فى شتون أوروبا قد حاول شرح معنى المصطلح () ، () الذى يستخدم فى فينسيا وهولندا وأماكن أخرى ، فهو يقول « فى مثل هذه الدولة . . ليس هناك حاكم منفرد ، ولكن كل شئونها تعالجها مجموعة من الرجال القياديين ، وهؤلاء الرجال يتخبون بواسطة الشعب ، » ونفس المؤلف يعرف سويسرا بأنها جمهوريات متحدة أو مجتمعة () ولكن كل واحدة منها تعتبر جمهورية منفصلة . وهو يقول أيضاً إن هذا الاصطلاح يستخدم بالنسبة لهولندا ، ولكن مع اختلاف طفيف واسمه () ، وفيه تكون مجموعة من الرجال تصدر

القرارات ، ولكن هناك رجلاً واحداً ينفذها . أما بولندا فقد لاحظ مع بعض التبرير أنها مملكة وجمهورية في آن واحد ^(١٨) ، وفي القرن ١٨ لاحظ الزوار العثمانيون أيضاً المؤسسات الأوروبية الغربية مثل المدن الحرة .

فمحمد سيد أفندى الذى زار تولوز وبوردو فى طريقة إلي باريس ، يصفها بأنها مدن حرة () ؛ حيث تحمى المدينة حامية من جنود محليين خاصة فيها ، ويرعى شئونها برلمان يرأسه رئيس . وكلتا الكلمتين ، من اللغة الفرنسية نسختا فى التركية الغربية ^(١٩) . لقد استعمل المؤلف من بداية القرن ١٨ فى استقصائه لأحوال أوروبا نفس المصطلح () حر ، وكذلك الجمهورية () لوصف ميناء دانزج ، الذى تمتع بإعفاء من كل السلطة الامبراطورية والضرائب . وهناك كاتب آخر من القرن ١٨ يصف بنيات وتركيب الامبراطورية الرومانية المقدسة ، مستخدماً الاصطلاحات « حرة » وجمهورية لوصف هذه الكيانات، ذات الامتيازات فى نطاق الامبراطورية كسوابيا ^(٢٠) .

ولقد تكلم بعض الزوار العثمانيون عن أن المجريين يعنون حريتهم السابقة ، لقد دخل الاتراك المؤسسات الجمهورية مظهراً جديداً بعد الثورة الفرنسية ، عندما كان الامبراطورية العثمانية ألا تقصر تعاملها مع الجمهورية الجديدة فى فرنسا ، ولكن يمتد هذا التعامل ليصبح مع الجمهوريات الأخرى ، وبعضها كان على حدود الدولة العثمانية . . وكان على الأسلوب الفرنسى ، وبينما كانت فرنسا ، وتركيا فى حرب . . كان وصول الأفكار الفرنسية للاتراك مدعماً ، ومع ذلك . . فإن السرعة والقوة اللتين استطاع بهما جيش تعداده أقل من ٢٠٠٠٠٠ أن يحتل مصر لمدة ثلاثة أعوام ، قد ترك انطبعا عميقا لدى الاتراك . وهكذا أيضاً كان اتساع وعدالة الحكم الفرنسى ، وهذا يمكن ملاحظته من بين الأشياء الأخرى عند المؤرخ المصرى الجبرتى ، الذى حفظ لنا فى عدد من الأعمال التاريخية تسجيلاً معاصراً للانطباعات لدى عضو من العلماء المصريين عن الفرنسيين المختلفين لمصر .

فى ١٨٠٢ انسحب الفرنسيون من مصر وجزر لونيا ، وتم إرسال سفير عثمانى جديد إلى باريس هو خالد أفندى ، مكث حتى ١٨٠٦ ، وكانت تعليقاته ذات فائدة

اخبارية ؛ نظراً لأن الفرنسيين لم يكن لديهم ملك .. فلم يستطيعوا أن تكون لهم حكومة . بل أكثر من هذا نتيجة لخلو كرسى السلطة .. فإن معظم المناصب العالية قد شغلت بواسطة صفوة الناس ، ومع أنه كان لا يزال هناك القليل من النبلاء .. إلا أن القوة المؤثرة ظلت في أيدي العامة .

وهكذا .. لم يكونوا قادرين على تكوين ولو جمهورية . ونظراً لأنهم لم يكونوا أكثر من مجموعة من الثورين ، أو على حد التعبير التركي مجموعة كلاب .. فإنه لم يكن محتملاً بأى شكل أن يحدث ولاء أو صداقة بين أية أمة وبين هؤلاء الناس . لقد كان نابليون كلباً مسعوراً ، يجاهد لكي يحضر ويجعل كل الدول في نفس الظروف التي تعانيها بلده .. إن تاليران كاهن فاسد والباقيين مجرد لصوص^(٢١) .

في ٢٩ مايو ١٨٠٧ .. أقصى أول السلاطين المصلحين العظام سليم الثالث ، وقد احتفلت القوى الرجعية بهذا عن طريق مذبحه للموالين للإصلاح . وبعد عام أو اثنين من هذه الأحداث كتب أحمد اسيم افندى المؤرخ السلطاني تاريخاً لأعوام ١٧٩١ - ١٨٠٨ ، الذي يحمل انطباعاً عن حركة الإصلاح بشكل عام ، والتأثير الفرنسي بشكل خاص . لقد كان سليماً بشكل عام في جانب الإصلاح ، الذي كان يأمل في استعادة القوى العسكرية الفاشلة للإمبراطورية وتمكنها من مواجهة أعدائها . وفي فقرة مهمة حدد مثالها بروسيا ، والتي يقول إنها قد برزت من ضعفها وبربريتها وأصبحت قوة عظيمة ، بتبنيها العلوم الغربية والتكتيك ، ولكن استعداده لقبول الأساليب الغربية لم يمنعه من أن يكون ضد المسيحية واعتبار كل المسيحيين كأعداء للإسلام . وفي اعتقاده أن الاتفاقات مع هذه القوى لا تجلب إلا الشر . ولقد كان معادياً لفرنسا بالذات واستهزأه تهكم من العنصر المعادي لفرنسا ، أو المعارض لها البروفرنس في تركيا ، ووصفه بأنه ساذج مخدوع لم يكن لديه الكثير ليقوله عن الشؤون الداخلية في فرنسا ، وقد كان هذا سلبياً ويقول « أن الجمهورية الفرنسية مثل فرقة المعدة المقززة » وتتكون مبادئها من « هو الدين ومساواة الغنى بالفقير » .

واحد من أكثر المؤسسات الغربية غير المفهومة للملاحظ المسلم ، هو مجلس التمثيل المنتخب .

إن كاتب جليبي ، كما رأينا يعرض ملاحظات قليلة عن المؤسسات الجمهورية الديمقراطية ولكن ضئيلة جداً . أو مقالة عن أوروبا غير معروفة سوى لشكل ضئيل . ولم يكن لدى باقى الكتاب العثمانيين شىء يقولونه فى هذا الموضوع ، وهناك بعض الاشارات القصيرة العرضية عن الهيئات المنتجة فى إيطاليا وفرنسا وهولندا ، وهى تظهر اهتماماً قليلاً مع عدم تفهم لها .

إن أول محاولة جديرة بالذكر لآبى طالب خان الذى زار إنجلترا فى نهاية القرن ١٨ ، وهو خلال سرد طويل وعام وودى (انظر ص ٢٥٥) إلى حد ما ، ولكنه لايشير سوى إشارتين قصيرتين لمجلس العموم ، الذى زاره فى صحبة بعض الاصدقاء والانجليز .

فى الاول بعد ملاحظة شىء غير مستساغ مؤداه أن الاعضاء الذين يخطبون يذكرونه بقطع من البيغاوات فى الهند ، لاحظ أن مجلس العموم يخدم غرضاً ذا ثلاث اتجاهات وهو تسهيل جمع الضرائب للدولة ، والحفاظ على الملتزمين من الاخطاء ، والإشراف على شئون الحكم والوزراء والشئون بشكل عام .

فى فقرة ثانية . . يعلق أبو طالب بشكل قصير ومختصر على أعضاء مجلس العموم وأسلوب انتخابهم ، ومدى الواجبات والالتزامات والمهام المخصصة لهم . ومن بين هذه المهام لاحظ مع بعض الدهشة تحديد عقوبات المجرمين ، وإصدار بعض القوانين ، وقد كان هذا ضرورياً نظراً لأنهم ليسوا كالمسلمين ؛ فهم لايمتلكون قانون سماوى ، وهم لذلك يعملون على إصدار قوانينهم الخاصة ، طبقاً للاحتياجات الضرورية للوقت والظروف ، وطبيعة الأمور وخيرة القضاء .

فى هذه الإشارة للمهمة التشريعية للبرلمان ، لمس أبو طالب واحدة من أعمق الاختلافات بين الإسلام والمسيحية ؛ فلدى المسلمين المؤمنين لم تكن هناك قوة إنسانية

تشريعية . . إن الله هو المصدر الوحيد للقانون ، والذي ينشره من خلال الوحي ، إن القانون الإلهي لشريعة في اللغة العربية ينظم كل مظاهر الحياة الإنسانية . إن القوى الأرضية ليس لها الحق في إصدار القوانين ، أو حتى تعديلها ، ولكن مهمة هذه القوى تأكيد وتقرير هذه القوانين لا أكثر . المجال الوحيد الذي بقي أساسا هو التأويل ، وهو مهمة العلماء المؤهلين ، أساتذة القانون الإلهي . في الواقع . . عند التطبيق كان الموقف مختلفا إلى حد ما عن النظرية فسي كثير من الأمور ، كانت تلك القوانين الإلهية يتغاضى عنها ضمنا ، أو عن طريق التأويل . وإعادته ونظراً لأن الظروف المتغيرة تجعل القانون الإلهي غير مناسب وغير واف بالغرض . . فإنه قد أضيف إليه أو عدل بالقانون المعتاد أو ببساطة بإرادة الحاكم . ولكن كل هذا كان ممارسة وليس نظرية في الأساس . . كان الله هو المشرع الوحيد ، أما السلطات الإنسانية . . فهي لاتستطيع أكثر من التأويل والتنظيم والتعزيز .

هناك بعض الإشارات الإسلامية المبكرة للممارسة المسيحية تعطى وجهة نظر مشابهة بخصوص الجانب المسيحي بل وتبالغ في تحديدها عن « شريعة المسيحيين » ، التي تدرك بالقياس إلى تلك الخاصة بالمسلمين . وفي وقت ما . . أصبح من المفهوم أن العالم المسيحي له مفهومه المختلف لطبيعة القانون ، وأسلوب مختلف في إدراك وتحقيق أو تطبيق العدالة .

والذي يدهشنا أن الإشارات الإسلامية المبكرة للإجراءات القضائية الأوروبية كانت عدائية ومختصرة لها ؛ فعلى سبيل المثال هناك زائر من العصور الوسطى أعطانا وصفا لمحاكمة في أشكالها المختلفة .

ان لديهم عادات غريبة ؛ فمثلا إذا اتهم أحد يتهم آخر بالتزوير . فإن كلا منهما يختبران بالسيف ، والذي يحدث أن يذهب الرجلان المتهمان مع اخوانهم واقربائهم ، وكل واحد منهما يعطى سيفان ، ينطق بأحدهما حول الخصر ، ويمسك بالآخر في يده . ثم يقسم المتهم بالتزوير بالمأخوذ به لديهم على أنه بريء من التهمة الموجهة

له ، ويقسم الآخر على أنه قال الحقيقة ثم يركعان على مقربة من بعضهما باتجاه الشرق ثم يبدآن القتال حتى يقتل أحدهما الآخر أو يعجزه .

واحدة أخرى من عاداتهم الغربية هي الاختبار بالنار ؛ إذا اتهم شخص ما فى أمور الاملاك والدم ، يأخذون قطعة من الحديد ويسخنونها فى النار ثم يقرأون شيئا من التوراة والانجيل عليها ، ثم يبتون عصوين رأسيا فى الارض ويأخذون الحديد من النار بواسطة ملقاط ، ويضعونه على نهاية كل من العصوين . ثم يأتى المتهم ويغسل يديه ويلتقط قطعة الحديد ويمشى بها ثلاث خطوات ، ثم يسقطها ثم تربط يده بالاربطة ، وتختم بختم يحفظ تحت المراقبة ليوم وليلة . وفى اليوم الثالث إذا وجدوا سائلا خرج من بؤرة الحرق .. فيعتبر مذنبا ، واذا لم يجدوا فهو برئ .

عادة أخرى من عاداتهم الاختبار بالماء ، وهذا يعنى أن المتهم تربط يده ورجلاه بحبل ويسدلى فى الماء ، فإذا طفا على سطح الماء فهو مجرم ، واذا غاص فهو برئ ، فهم يعتبرون أن الماء قد قبله . العبيد فقط هم الذين يتم اختبارهم بالماء والنار أما الاحرار فإذا اتهموا فى شيء من أمور الاموال والاملاك يقل عن 5 دينارات .. يذهب الطرفان بالعصى والدروع ويتحاربوا حتى يعجز أحدهما .

فإذا كان أحد الطرفين امرأة أو معوقا أو يهوديا .. فهو يعين وكيفا أو نائباً أو ضامناً لـ 5 دينار ، وإذا سقط المتهم يجب أن يصلب وتصادر كل أمواله ويأخذ خصمه عشرة دنائير من أملاكه .

هذه الفقرة ذكرها القزوينى من عصرى ، ولذلك فهي ربما تشكل جزءاً من خبر إبراهيم بن يعقوب .

ويعطينا أسامه بن منقذ وهو سورى معاصر للصليبيين ، وصف شاهد عيان للغزال فى المدينة المحتلة بواسطة الصليبيين وهى نابولى (نابلس) فى فلسطين :

« يوما فى نابلس رأيت غزالا (للاختبار) ، وكان السبب أن بعض قطاع الطرق المسلمين قد نهبوا إحدى القرى فى نابلس ، واتهموا واحداً من الفلاحين بأنه أرشد

قطاع الطريق فهرب الفلاح ، ولكن الملك قبض على ابائه ، فرجع الرجل وقال « أريد العدالة سأتحدى الرجل الذى اتهمنى بأننى أرشدت قطاع الطرق للقربة » وحيثئذ قال الملك للمسيد الذى تدخل هذه القربة فى اقطاعه « احضر أحدا ليحاربه » فذهب إلى القربة ووجد حدادا وأمره بأن ينازله ، ولكن مالك الأرض يخاف أن يقتل الفلاحون الذين يعملون لديه وتتوقف الزراعة .

لقد رأيت هذا الحداد ، كان شابا صغيراً قويا ، ولكن ليست لديه خبرة ولاجلد . فهو يقاتل قليلا ثم يجلس ويطلب ماء ليشرب . . وكان الخصم الآخر عجوزا ، ولكنه قوى الإرادة ومحارب . جاء الفيكونت وهو رئيس المكان أو المسئول عنه ، وأعطى كلا منهما هراوة ودرعا وحبلا ، والناس يؤلفون دائرة حولهما . ثم بدأ القتال . ضغط الرجل العجوز على الحداد وجعله يتراجع فى الحلقة نحو المتفرجين المؤلفين للحلقة ، ثم رجع إلى مركز الحلقة . واستمر فى ضرب بعضهما حتى أصبحا كعمودين من الدماء . وقد استغرق النزال وقتا ، والفيكونت يصيح بهم « أسرعوا » وقد أفاد الحداد من خبراته فى الطرق بالمطرفة ، أما الرجل العجوز . . فقد بدأ يضعف فضربه الحداد ضربة أسقطته وسقطت الهراوة تحت ظهره ، ثم ركع الحداد ناحيته وأراد فقأ عينيه ، ولكنه لم يستطع فعل هذا بسبب تدفق الدم من عينيه . لذلك . . وقف وجعل يضرب رأسه بالهراوة ، حتى قتله ، ثم ربطه بالحبل حول عنقه وسحبه وعلقه منه . وجاء سيد الحداد وأعطاه عباءته وجعله يركب على حصانه ويذهب .

هذا إجراء بعد الفهم واجراءاتهم القانونية ألا فليلعنهم الله (٢٦) .

إنه من السهل أن نفهم تفرد المسلم المتحضر المتعود على الاجراءات القانونية فى محكمة القاضى بمثل هذا النوع من القانون والعدالة . ولكن الاجراءات القضائية الأوروبية لم تزل على مستوى عقاب النزلاء ، وقد كان الملاحون المسلمون المتأخرون الذين كانت لديهم الفرصة لملاحظتهم عن قرب أكثر إيمانا فى تعليقاتهم . فى القرن الثانى عشر . . لاحظ ابن جبير ، وهو زائر اسباني مسلم لسوريا أن الفرنجية يعاملون الرعايا المسلمون الخاضعين لهم بعدالة ، وقد وجد هذا سببا للازعاج والقلق . وفى نهاية القرن

الثامن عشر . . عبر عن أحاسيس مشابهة المؤرخ المصرى الجبرتى الذى وصف القوات الفرنسية التى تحتل القطر ، وأعجب بنظامها فى التعامل مع السكان المدنيين ، وخضوع سلطتهم للسultan والاجراءات القضائية على النقيض من الطغيان العرفى المتقلب ، الذى تعود عليه ، ولقد أبدى دهشة من الأسلوب الذى حوكم به قاتل كليبر خليفة نابليون ونائبه وقائد القوات فى مصر بعد رحيل نابليون .

ويقول الجبرتى إن الفرنسيين طبعوا أحداث ومداولات المحاكمة بثلاث لغات هى الفرنسية والتركية والعربية ، وهو كان يود أن يسقطها من تاريخه نظراً لأنها طويلة ومكتوبة بالعربية الركيكة ، ولكنه قرر أن كثيراً من القراء يودون معرفة شىء عنها ، ليس فقط من أجل المعلومات التى تعطىها عن الحدث الفعلى ، ولكن أيضاً من أجل إلقاء الضوء على أسلوب العدالة الفرنسية ، وأسلوب تنفيذ القواعد بواسطة هؤلاء الناس ، والتى لاتتبع الدين (أى القواعد) ولكنها تتم باستخدام العقل . وقد لاحظ أن الدعوة كانت مهذبة « ان شخصا غريبا طائشا من مكان بعيد قد قتل رئيسهم غدرأ وأمسكوه ويده ملطخة بالدماء . والآن هم لم يقتلوا من وفاه بأسمائهم ، مع أنهم أمسكوه والسلاح الذى قتل به فى يده ، ولايزال يقطر من دم رئيسهم . وقد عقدوا فى محاكمة واحضروا هؤلاء الذين وشى بهم واستجوبوهم كلاً على حدة ، ومع بعضهم ، ثم أصدروا الحكم عليهم طبقاً للإجراءات القانونية ، وأطلقوا سراح مصطفى أفندى البورنسانى الخطاط حيث لادلائل أو دعوة » لقد تأثر الجبرتى بعمق لإصرار الفرنسيين على إقامة الإجراءات القانونية باستعدادهم لإصدار سراح واحد من المتهمين ، الذى لم تكن هناك أدلة كافية ضده . ولكن الجبرتى بمرارة ناقض هذه الأسباب « الأعمال الشائنة التى رأيناها ترتكب بواسطة الجنود الأوغاد ، الذين ادعوا أنهم مسلمون وتظاهروا بأنهم مقاتلون فى حرب مقدسة ، وقتلوا الناس ودمروا الكائنات الإنسانية ، لا لشىء إلا إرضاء شهواتهم الحيوانية (١٧) .

لم يكن كلا الملاحظين المسلمين يعجبون بالإجراءات القضائية الغربية ، إن أبا طالب كان له رأى أقل موافقة واستحسانا ؛ حيث إن سوء حظه جعل ترزيا فى لندن يقاضيه

من أجل ١٠ شلنات ، وأمره القاضى بأن يدفع هذا المبلغ وفوقه ٦ شلنات غرامة لأنه لم يعط المدع حقه .

لم يتأثر بنظام المحلفين حيث كان القاضى يستطيع إبطال قرار المحلفين ، وفرض وجهة نظره أو مطالبتهم بإعادة النظر فى قرارهم . . ولم يكن هذا كل شيء ، وإذا فشلت هذه الإجراءات . . كان من حق القاضى أن يغلق على المحلفين ، بينما يكون هو والمحامون فى مكان آخر من دار المحكمة يأكلون ويشربون نسبة على حساب الحكومة . وكان المحامون أكثر إثارة للازعاج بالنسبة لأبى طالب من المحلفين ، حيث كانوا يمارسون مهنة غريبة من الإجراءات القضائية الإسلامية . وقد تنازل أبو طالب بالقول أن القضاة الإنجليز « شرفاء ويخافون الله معصومون ضد مكر وحيل المحامين » ولكنه مع ذلك لاحظ إن طول مدة المحاكمة وارتفاع تكاليفها يؤدي إلى رفض العدالة للمدعى .

حتى القضاة أصحاب النوايا الحسنة ، ربما سمحوا للمحامين بتشويش القضية وإرهاب الشهود . وقد لاحظ أن حكم القانون غالبا ما يتعدى املاءات العدالة الطبيعية ، وحتى القاضى الذى كان يخاف الله لا يستطيع أن يتخذ قراراً منصفاً ، دون ان يخرق هو نفسه هذا القانون ، الذى هو من صنع الإنسان ^(٢٨) .

بشكل عام . . هؤلاء المسلمون الذين كلفوا أنفسهم عناء ملاحظة الإجراءات القضائية والتشريعية الأوروبية كانوا متأثرين بها ويميلون إليها . إن الشيخ المصرى رفاة الطهطاوى الذى كان فى باريس ١٨٢٦ - ١٨٣١ ، قد كلف نفسه عناء ترجمة النص الكامل للدستور الفرنسى .

لم يكن الشيخ رفاة قد استوعب تماماً فكرة المساواة الفرنسية ، التى كما لاحظ لامتد إلى الشئون الاقتصادية « إن المساواة لم توجد سوى فى كلماتهم وأفعالهم ، وليست فى ممتلكاتهم ، حقيقة لم يكونوا يرفضون أصدقائهم ، بشرط أن يطلبون منهم قرضاً وليس هبة ، وحتى ذلك لا يحدث ، إلا اذا كانوا متأكدين من أن القرض سيرد » لاحظ الشيخ رفاة أن الفرنسيين « أقرب إلى الاقتصاد منه إلى الكرم . . وفى الحقيقة

فإن الكرم ينسب إلى العرب » . ومع ذلك . . فلقد تأثر رفاة بمبدأ المساواة الفرنسي قبل القانون ، ووصف هذا بأنه « واحد من أوضح الأدلة على الوصول إلى درجة عالية من العدالة فيما بينهم ، وإلى التقدم فى الفنون المتحضرة . إن تلك التى ينادونها بالحرية ، والتى يناضلون للوصول إليها هى نفس ما نطلق عليه العدالة والمساواة والإنصاف ، وذلك بسبب أن معنى حكم الحرية هو توطيد الحرية قبل القانون ، « لقد دهش الشيخ رفاة بشكل خاص ؛ لوجود قوانين محدودة ، وأثار الانتباه إلى مغزى الضمانات الدستورية البرلمانية قد جاء أكثر وأكثر ؛ ليستحوذ على عقل زوايا أوروبا من مسلمى الشرق إلى حد كبير فى البداية أكثر منه تطورا اقتصاديا ، وهنا كثير منهم أملوا فى أن يجدوا المفتاح ، الذى يكتشفون به أسرار التقدم الغربى ، ويشاركون فى مزايا الثورة والقوة الغربيين .